مقدمة

الحمد لله ، وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى .

أما بعد . .

فمما لا ريب فيه أن كل المشفقين على مسار الأمة ، وكل القوى والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، متفقون على أن أمتنا تعيش في أزمة حقيقية ، تعددت أعراضها ، وتنوعت آثارها ، وإن اختلفوا في تعيين جوهر الأزمة : ما هو ؟

أهي أزمة إيمان وأخلاق ، كما يُصوِّرها دعاة الدين والفضيلة ؟

أم هي أزمة فكر ومعرفة كما يصوِّرها رجال الفكر والثقافة ؟

أم هي أزمة حرية سياسية وديمقراطية ، كما تصوِّرها القوى المعارضة للنظم الحاكمة ؟

أم هي أزمة علم وتكنولوجيا ، كما يصوِّرها كثير من دعاة الإصلاح ، ومن رجال الفكر أنفسهم ؟

لقد ردد كثيرون مع شوقي قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم

ولكن الدكتور زكي نجيب محمود علق على ذلك بقوله :

لولا خشيتي سوء التأويل لعارضت شاعرنا ، لأقول له : وإنما

الأمم في يومنا التقنيَّات ما اطردت وتغلغلت ، فإن هم انعدمت علومهم وصناعتهم وتقنيّاتهم ، تخلفوا إلى حيث لا أمل ولا رجاء ، اللّهم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف يُضغط على الأزرار ومتى .

وآخرون قالوا : إنما الأمم الأفكار والثقافة .

وغيرهم قالوا : إنما الأمم الحرية لوطنها ، والحقوق لشعبها .

والأولى من ذلك أن ندع وحدانية التعليل والتفسير ، إلى الشمول والتعدد .

إن «التفسير الواحدي» للتاريخ وللواقع لم يعد مقبولاً ، لأنه يبصر الحقيقة من زاوية واحدة ، ويغفل زواياها الأخرى ، وهو يبسّط الأمور المعقدة والمتشابكة .

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة ، كما تؤثر فيها السياسة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها .

ومهما يكن الاختلاف في تحديد جوهر الأزمة ، فأحسبُ أنه لا يخالف أحد في أهمية دور الثقافة فيها ، وخصوصاً الجانب الفكري والأدبي والفني منها . وذلك لما لها من تأثير في الأخلاق والسلوك ، ومن تأثير في السياسة والحكم ، وتأثير في توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف ، إلى العلم والعمل ، أو الكلام والجدل .

فلو صحَّت ثقافة أمة واستقامت ، وتكاملت وتوازنت وسلمت من عوامل التشويه والتحريف ـ كما هو الأصل في ثقافتنا ـ لكان لها أثرها البالغ في صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها . وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية كذلك ، لأن الثمرة من

جنس الشجرة . وصدق الله إذ يقول : ﴿**والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ ربِّه والَّذي خَبُثَ لا يَخرُجُ إلاَّ نَكِداً**﴾ [الأعراف : ٥٨] .

أما قضية «الأصالة والمعاصرة» في ثقافتنا فهي قضية قديمة جديدة .

فمنذ كنا طلاباً صغاراً ، ونحن نقرأ ونسمعُ ونتابعُ أنباء صراع فكري أدبي محتدم بين تيّارين متعارضين يعبّر عن أحدهما بـ «القديم» ، ويعبّر عن الآخر بـ «الجديد» .

ومما قرأناه من آثار هذه الحرب التي تسلّ فيها الألسنة لا الأسنّة ، وتشحذ فيها الأقلام لا السيوف : كتاب «تحت راية القرآن» أو «المعركة بين القديم والجديد» لأديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي ، الذي شنّ فيه الغارة على الدكتور طه حسين وكتابه عن «الشعر الجاهلي» .

وفيه سخر الرافعي من هؤلاء «المجددين» الذين يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر !

ومما قرأناه شعراً من آثار هذه المعركة قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته الشهيرة عن «الأزهر» مشيراً إلى الغلاة من دعاة التجديد ، وأعداء القديم :

دع عنك قول عصابة مفتونة ... يجدون كلّ قديمِ أمرٍ منكرا !
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... مَن مات مِن آبائهم أو عُمّرا !
من كلّ ساعٍ في القديم وهدمِهِ ... وإذا تقدم للبناية قصّرا !
وأتى الحضارة بالصناعة رثّةً ... والعلم نزراً ، والبيان مثرثرا !

كما قرأنا قول «إقبال» عن هؤلاء المجددين : إن جديدهم هو

قديم أوربا ، كما ذكّر هؤلاء بأن الكعبة لا تجدد ، ولا تستجلبُ لها حجارة من الغرب !

واستمرت هذه المعركة بين التيارين المتضادين ، ظاهرة حيناً ، وخفية في معظم الأحيان ، يشتعل أوارها كلما ظهر كتاب بالغ الجرأة ، أو نشرت مقالة كذلك ، وتخبو جذوتها كلما مضت الحياة على وتيرتها المعتادة .

كان التيار الأول يمثل القديم الموروث في ثباته وشموخه ، وكان التيار الآخر يمثل الجديد الوافد في بريقه وإغرائه .

وكان يمثل الدفاع عن التيار الأول : رجال الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعي ، ومَن دار في فلكهم في مصر ، وأمثالهم في البلاد العربية والإسلامية .

وكان يمثل التيار الآخر : خريجو المدارس والكليات الأجنبية في الداخل ، وخريجو الجامعات الغربية والوافدون من الخارج ، ومَن تتلمذ عليهم ، وحطب في حبلهم .

ولا ريب أنه وجد غلاة في كلا الفريقين . ففي مقابل الذين يريدون تجديد الكعبة والشمس والقمر ، وجد الجامدون على كل قديم ، الذين يريدون أن يوقفوا حركة الفلك ، وسير التاريخ ، شعارهم : ليس في الإمكان أبدع مما كان ! وضاع الوسط بينهما .

وقد لخص الموقف علاّمة الشام محمد كرد علي في بحثه «القديم والحديث» بقوله : ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، والأمة شطران : شطر هو إلى البلاهة والغباوة ، وشطر إلى الحمق والنفرة . وبعبارة أخرى : نسينا القديم ، ولم نتعلم الجديد !

كانت عناوين النزاع بين التيارين تختلف من فترة لأخرى ، ولكن المضمون في النهاية واحد . إلا أن التيار الأول يحمل في الغالب عنواناً منفّراً مستنكراً ، على حين يحمل التيار الآخر عنواناً جذاباً مغرياً .

تجد ذلك بيّناً واضحاً في العناوين التي استخدمت في التعبير عن هذا الصراع : القديم والجديد ، والتقليد والتجديد ، المحافظة والتحديث ، الجمود والتحرر ، الرجعية والتقدمية .

حتى انتهى أخيراً إلى العنوان السائد اليوم ، الذي يحمل ثنائية مقبولة إذا أعطيت الكلمة حقها من الفهم والتحليل ، وهي ثنائية التكامل ، لا ثنائية التضاد والتقابل ، وهو «الأصالة والمعاصرة» ، وفي وقت ما عبر عنه بـ «الأصالة والتجديد» . وقد قدمت فيه دراسات ، ونظمت ندوات وحلقات[1] .

وبحثنا هذا يتحدث عن «ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة» .

هكذا حدده لي الإخوة الزملاء في كلية «الإنسانيات والعلوم الاجتماعية» بجامعة قطر ، الذين خططوا لهذه الندوة الفكرية العلمية ، التي تدور بحوثها حول هذا الموضوع المهم : «الثقافة العربية : الواقع وآفاق المستقبل» .

ولا ريب أن قضية «الثقافة العربية» قضية بالغة الأهمية ، ولا غرو أن عقدت حولها عدة ندوات ، ومؤتمرات في أكثر من بلد ،

---

(١) من ذلك : الندوة التي نظمها «مركز دراسات الوحدة العربية» عن «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي» ، أو «الأصالة والمعاصرة» بالقاهرة في سبتمبر سنة ١٩٨٤م ، ونشرت بحوثها ومناقشاتها في مجلد ضخم .

تبحث في جانب أو أكثر من جوانبها المتعددة .

ويبدو أن الإخوة الزملاء أرادوا إرضائي أو إغرائي ، فجعلوا عنوان بحثي على وجه الخصوص : الثقافة العربية الإسلامية . . . إلخ . ولم يكتفوا بوصف العربية وحده ، فهل يمكن أن تكون ثقافتنا عربية غير إسلامية ؟

هذا ما ينبغي أن نبحثه هنا : ماهية ثقافتنا : أهي عربية أم إسلامية ؟ أم هما معاً ؟

وما مكونات هذه الثقافة وخصائصها ؟

وما معنى هاتين الكلمتين اللتين اشتهرتا على الألسنة والأقلام ، ورددهما الناس هنا وهناك ، دون تحديد بيّن لمفهومهما : الأصالة والمعاصرة ؟

وما المقصود بهما في نظرنا نحن المؤمنين برسالة الإسلام ، وخلود دعوته ، وبقاء أمته ، واستمرار كتابه ـ بلسانه العربي المبين ـ محفوظاً ، كما وعد الله : ﴿**وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً**﴾ [الكهف : ٩٨] .

هذا ما نرجو الله ـــ تباركت أسماؤه ـــ أن يوفقنا بفضله إلى إلقاء شعاع من ضوء ، محاولة لإزاحة الضباب والغبش عنه ، بقدر جهدنا الكليل ، وزادنا القليل . وسنقسم دراستنا هذه إلى أربعة فصول وخاتمة .

﴿**وما تَوفِيقِي إلاَّ بِاللهِ عَلَيه تَوكَّلتُ وإلَيه أُنِيبُ**﴾ [هود : ٨٨] .

الدوحة : رمضان سنة ١٤١٣ هـ (مارس ١٩٩٣م) .

يُوسف القرضاوي

* * *